

الأغاني المصرية بعض أمراض المجتمع للأستاذ فايد العمروسي

الأغاني في مصر صورة ناطقة لغرائز الشعب وميوله المكبوتة منها والطيقة، وهي تعبير صارخ عن إحساسه وذوقه ، ولكنها لا يمكن أن تكون صورة أو شبه صورة للحياة الفكرية الأدبية في مصر ، بل هي أبعد ما تكون عن الامتاج الفكري السليم وعن الأدب الرفيع .

وآفة الغناء عندنا يمكن أن ترجع إلى ثلاثة أمور :

أولها المؤلفون ، وثانيها الموسيقيون وبالتعبير الأصح الملحنون ، وثالثها الذوق الفني للشعب .

أما المؤلفون فمعظمهم من المرتزقة الذين ليس لهم من الثقافة نصيب ، احترقوا تأليف الأغاني بالألفاظ العامية، ودسوا تحتها المعاني الرذولة الوضيعة، ونفثوا فيها سموم الأمراض النفسية التي تفسد النفس والروح ، وتحل الأخلاق ونحو الرجولة وتشوه سمات الشباب ، ولست بحاجة إلى سوق أمثلة من تلك الأغاني فكل فرد في الأمة ذكرا أو أنثى ، متعلما أو غير متعلم يحفظ هذه الأغاني المسمومة عن ظهر قلب ، بل إننا لنشيد بعضهم في اليقظة والمنام ، وفي شغلهم وراحاتهم وفي طريقتهم ومنازلهم ، وهؤلاء المؤلفون كما يدعون ، والعاشر على الوجه الأصح يرحون في مجبوحة من الحرية بلا رقيب .

والموسيقيون أو الملحنون !! وكلمة "الموسيقى" كلمة عالية رفيعة ، لأن الموسيقى شخص موهوب صانى الحس والخيال معمور القلب، والروح بالمثل المليا وقداسة الإلهام . فالملحن هو الشخص الذي يمكن أن يوجد عندنا على أنه نادر أي نادرة. بعض هؤلاء أيضا من جرائم الأمراض الاجتماعية الفتاكة ! إنهم ملحنون طالما لكل منهم يدان في كل منهما خمس أصابع تحرك الأوتار كيفما اتفق وحيثما يكون !

إن التلحين هو تعبير الألحان الجميلة عن معنى المقطوعات الغنائية ، والمالحن إن لم يكن له من طاقة إحساسه قوة كبيرة تحبس المعاني ، وإن لم يكن له من ثقافته ما يدرك به هذه المعاني إدراكا عميقا ، وإن لم يكن له شعور فني يتذوق الفن . إن لم تكن فيه كل هذه القوى مجتمعة فسد فنه ، وكان فساد ألحانه في روح الشعب أشد وأنكى من فتك الأمراض وبلاء الأتواء .

والذوق الفني للكثيرين من أفراد الشعب . . . — وهنا لاضير على أن أقرر الحقيقة — إنه ذوق صالح جدا لمثل هذه الأغاني التي أعيبها ، ولمثل هذا التلحين الذي وصفته ، بل إنه ذوق لا يستسيغ سوى هذه الأعاني الهزيلة ، ولا يطرب لسوى ذلك الماعين الفاسد الموبوء . . . وإن المصلح أى مصلح والناقد أى ناقد ليسير كل منهما بخطا واسعة المسدى حتى يعطدم بالعقبة الخالدة وهى ذوق الجمهور الفنى ، وفى هذه النقطة فقط تفشل حملة الكتاب ويخيب رجاء الإصلاح .

ولو حددنا القول من غير توسع لقلنا : إن للكثيرين منا ذوقا فنيا رديئا غابرة الرداءة ، أو هو ذوق ينج تنقصه الثقافة والتهديب . وهؤلاء مهذورون فى هذا كل العذر لأن الذوق موهبة من مواهب الإنسان ترقى برفيه وتنضج بنضوجه . وهو مرتبط كل الارتباط بحياة الشعب الفكرية من آداب وعلوم وفنون ، وإن يدعى مدع أننا خطونا فى الفنون خطوات واسعة تحقق لنا تربية الأذواق السليمة أو الإحساس الرفيع !

والمسؤولون أولا وآخرا عن فساد هذه الأذواق أو ضعفها هم مؤلفو الأغاني وملحنوها ومفتووها ، والمخزن أن أرباب الأقلام من الشعراء والكتاب فى مصر لاصلة لهم بالتأليف الفنائى ولا بالمغنين بعد استثناء عدد قليل أو شاذ !! أدولاء عاجزون ؟ أم أنهم مترفعون ؟ الحق هو هذا وذلك ؛ فهم عاجزون لأنهم دفعوا إلى الملحنين روائع من أدبهم فلم يفهم الملحنون هذه الروائع ، وبالتالي لم يستطيعوا تنجيتها ، لأن التلحين كما قلت هو فهم المعنى والقدرة على الإحساس به ، ولن يستطيع الملحن أن يضع موسيقى لمعان بعيدة عن عقله ، وإحساس بعيد ورفيع عن طاقته المعنوية . والأدباء الكبار قد فشلوا أيضا . فشلوا لأن بضائعهم الأدبية فى السوق أولا وغالية الثمن ، وثانيا جيدة العنصر رفيعة الجوهر ، وبجانب هذه البضاعة الجيدة بضائع أخرى رخيصة الثمن رديئة العنصر مريضة الحس ، والبضائع الرديئة كما تقول النظرية الاقتصادية تطرد البضائع الجيدة من السوق . والغريب أن هذه نظرية تحققت فى عالم الأغاني وفى عالم الأدب أيضا ، الإنتاج الأدبى القوى لا يتداول ولا ينتشر فى الحركة الفكرية المصرية وإن كان يحيا ويخلد ولكن فى زمن غير زمنه .

والدليل على هذا أن في جو أغانينا المصرية نشيدين وطنيين لكبيرين من الأدباء لم تدم حياة أشادهما إلا صررات معدودات ثم خفت أنفاسهما... ولماذا؟ لأن فيهما عناصر القوة الأدبية والروح الفنون الرفيعة، وكلتا الخاصتين كما قلت لا يهضمها الملحن فيعجز عن وضع موسيقا لهما، ولا يحسهما المستمع فيسام منهما، ولا يطرب لهما القارئ على ندرته فيتنحى! إن الأدب العربي عامة والأدب الحديث خاصة محشود بالقطع الغنائية الرائعة فيها الوطنية والحماة وريح التضحية وإيثار النفع العام، ثم فيها تصوير المواطنف الإنسانية على اختلاف نزعاتها وفيها الفحص والتشيل الذي يعالج المشاكل الاجتماعية القومية.

في هذا الأدب عامة ثروة طائلة وبخاصة في إنتاج بعض شعراء هذا العصر فإين من يستسيخ هذا وأين من يختاره؟ سيستخر منه الملحن إذا رآه لأنه لا عهد له بمثله! وستتجههم له محطة الإذاعة لأن أنواء المغنيات لا تتحملة!!

ومن الأغاني الأناشيد وإننا لأشد الأهم فقرا إلى الأناشيد، إلى الأناشيد الريفية التي تحمل طابع الريف وتصور نيله وقطنه وقمح وربيعة وخيراتة وجاموسه وبقرة، وتصور ساعد فلاحه ونشاطه وتمجد ذراعاه وساقه. وتشيد بجهوده وعرقه، وتكرم الملاحه في صباحها ومساءها ووراء ماشيتها وفي عقردارها.

نحن في حاجة إلى أناشيد للعمال، أناشيد للصناعة الحية بمجد الصناعات وتشجيعهم وتشيد بذكهم وتصور مفاخر الصناعة في الماضي وأملها في الحاضر والمستقبل، نريد أناشيد للصناعات يتغنون بها في أوقات فراغهم... في حاجة إلى أناشيد للنشء الصغير، أناشيد ليس من الضروري أن تكون كلها وطنية، فنشيد وطني واحد يكفي لكل طبقات الشعب جنديا وزارعا وصانعا وتلميذا، ولكن نريد أناشيد للدرسة والبيت واللعب وكل ما يقع عليه حسه في العالم المحيط به. نريد كل هذه الأناشيد على اختلاف صنوفها لتدرس في المدارس مع الطفولة. ولنغنى في كل وقت وكل مكان ولتكون جزءا جوهريا من مناهج التعليم وليس أشد نكبة من أن يكون شعار الغناء عندنا "بالوعتي" "أوبلاش تبوسني" وانك لتري التلميذ متأبطا كتيه، محاصرا زميله يغنى في فتور ورخاوة "بالوعتي" وأعجب من هذا وذلك أن تسمعه من العامل... العامل الذي تأتي رحولته وفتوته أن يعرف اللزعة، ويأبى اجتماعنا وغناؤنا إلا أن نلدها في روعدهسا في لحن ابن متكسر.

أما نكبة هذا الغناء في نفوس فتياتنا، وأما مكاتته في قصور الأغنياء ومنازل الفقراء نغلاها جانباً...

من هذا العرض السريع تبين أن آفات الأغاني عندنا هي التأليف الغنائى والمحين
والذوق الفنى لبعض الجمهور . وكل تفكير لإصلاح الأغاني يجب أن يتناول هذه النواحي
الثلاثة وأولها : التأليف الغنائى .

وما أظن أن التفكير في علاجه مستحيل وليس هو بالأمر العسير . وان من الحكمة أن يشغل
اصلاح هذه الأغاني اذهان المفكرين في الأمة لأنها جزء جوهرى من حياة الشعب النفسية ، وعلى
أصمها تربي العاطفة القومية بل منها تتكون الوطنية بالوان قوتها وضعفها ، فوق أنها الغذاء الفنى
للروح والعناصر الأولى لتربية الأذواق ومن أوضح طرق العلاج وأيسرها لألفاظ الأغاني ما يأتى :

(أولا) الرقابة النامة على التأليف الغنائى ، وأعنى بها النظر فى كل مقطوعة غنائية
شعرا كانت أو ما يشبهه من حيث الفاظها ومعانيها وغايتها ، بحيث لا تمر قطعة واحدة
من مؤلف الى ملحن ثم الى مغن إلا بعد أن تتال القبول شكلا وموضوعا لدى هذه الرقابة .

(ثانيا) أن يكون أعضاء لجنة الرقابة من الشعراء والأدباء ومن عرفوا بجوهرهم الاجتماعية
ونحن والحمد لله لا ينقصنا هؤلاء فهم كثير وجهودهم فى الأجواء الأدبية والاجتماعية معروفة مشكورة .

(ثالثا) أن تكون هذه الرقابة تابعة لوزارة الشؤون الاجتماعية ، وأن يعطى لها حق
الاقتراحات التى تكفل بها تصفية هذه الأغاني وتهذيبها من السقوط وتطهيرها من الجرائم
وأنا كقيل أننا سنخرج بعد هذه الرقابة بمحصول وافر من الأغاني فى جميع ألوانها ونزعاتها
وسيكون هذا المحصول حالى الأداء رفيع المعنى صافى التعبير واضح الغاية .

والمطالبة بوجود هذه الرقابة ليست بدنا أو خلقا جديدا ، فهناك هذه الرقابة عينها
فى وزارة المعارف تشرف إشرافا تاما دقيقا على ما يلقى فى محطة الاذاعة من المحاضرات
بجميع أنواعها وعلى ما يلقى من الشعر والقصص والمقطوعات التمثيلية ، ولقد نجحت هذه
الرقابة فى إشرافها بما بذلت من جهود فى التهذيب والدقة والاختيار .

هذه بعض نواحي وجوه الاصلاح للتأليف الغنائى ، ولا أدعى أنها كل شيء ، أو أنها
صفوة التفكير وعاية التوفيق ، ولكنها على الأقل تصلح أساسا للتفكير فى هذه الناحية ،
وتصلح خطوة أولى فيما يزيد من اعتناء أولى الأمر بأغاني الشعب ، وهى كما قلت فى وضعها
الحالى بعض الأعراض الاجتماعية عندنا .

وتأنيها للحين :

ولدينا فى مصر ملحنون لا يعدون ، ولكن الذى يعرف فنه منهم عدد أقل من أصابع
يد واحدة... يعرف فنه فيجيد أحيانا فيما يلحن إجادة جديرة بالإعجاب ، وينفق أحيانا أخرى
فيستحق النقد الشديد... لدينا ملحنون لا يعدون يعرفون - فقط - كيف توضع ألفاظ

الفناء في نغم أي نغم ... وفي لحن أي لحن ، وهم معذورون فيما يصنعون ما دام لقب الملحن لقباً شائعاً يستطيع أن يحمله كل من حرك بأصابعه أوتار العود ! ! والتلحين كما قلت - يتطلب فهماً لمذلولات الألعاظ ، ويتطلب إدراكاً لاماني وإحساساً بالغاية التي نشدها من الفناء ، وعلى أساس المعنى وإدراكه والاحساس به إحساساً سليماً يوضع النغم فيصيب ، وما أظن أن النظر في الانهاض بهؤلاء الملحنين أمر عسير ، ويمكن أن أعرض في إصلاح أمرهم ما يأتي :

(أولاً) لدينا دار اسمها "معهد الموسيقى الملكي" في هذا المعهد ملحنون وموسيقيون قداماء وجدد في ميولهم الفنية حسب الموسيقى ومعرفتها ، وهذا المعهد تشرف عليه وزارة المعارف إشرافاً محدوداً وتمده كل عام بمساعدة مالية كبيرة ، أفلا تفكر هذه الوزارة في تنظيم هذه الدار تنظيمياً جديداً ، فتدخل على المناهج الموسيقية فيه مناهج للثقافة الضرورية للفنان ثم للثقافة الأدبية التي لها صلة بالموسيقا كالأدب وجماله ، والشعر ونظمه وفنونه ، والقصص الروائي والتشلي وغايته ، فالملحن لو فهم معنى جمال الأدب وتدوقه ، ولو حفظ شيئاً منه مختراراً ، ولو وقف على تاريخ الشعر العربي بقدر وجيز ، ولو درس دراسة محدودة لشعر الأندلس وموشحاته بما فيه من فنون وأشكال للأوزان المتعددة ، أقول لو أخذ الملحن من كل هذا شيئاً يسيراً لاستثار فكره وصفا ذهنه وأحس بالذوق الفني ينبض في مواهبه فيساعده هذا على تنمية الاستعداد الفني الذي دفعه إلى هذه الطريق .

وهذا تشريع يلقي على عاتق وزارة المعارف ، فعليها تنظيم دراسة ثقافية بجانب الدراسة الموسيقية وإعطاها الإشراف على تعليم الموسيقى بهذا المعهد .

(ثانياً) دراسة الموسيقى في هذا المعهد دراسة شائعة غير مقيدة ، ويحسن أن تنفخ الوزارة مدرسين اخصائيين مقيدتين بمناهج عليهم آداؤها أداءاً كاملاً تحت إشرافها ، على أنه لا ينبغي أن تتجاهل أثر الموسيقى الغربية والموسيقى الشرقية في الأقطار الأخرى ، ولو كان لهذا وتلك مدرسون يتعاونون في تعليم أبناء هذا المعهد لكان لنا فيهم مواهب مطعمة بأكثر من لون واحد من الفنون ، والموسيقى العربية صالحة جداً للتعليم .

بهذه الطريقة نستطيع أن ننفع بكثير من المواهب الفنية في الشباب الذي يلج باب هذه الدار صباح مساء ، وبهذه الطريقة عينها نستطيع أن نمحو من الجحيم الموسيقى العنصر الفاني الرديء الذي يندس بين أفراد هذا الفن فيشوه الموسيقى والتلحين .

أما المغنون والمغنيات ، فهؤلاء قوم يملكون حاجهم فحسب ، وما عليهم إلا أن يرددوا ويغيا كما يرسم لهم من الألحان ، ولكن يجب ألا يغيب عن أذهاننا أن طبيعة التلحين أحياناً قد تشوه صوتاً هو في ذاته جميل ، فاليقظة والحرص على إصلاح التلحين وترقيته قد تسمعنا من الأصوات أعذب مما نسمع ، وقد نستريح إلى هذه الأصوات ونالغها أكثر مما ندر منها الآن ونستاء ! !

بقي الذوق الفني للشعب وهو ثالث الأدواء :

ذوق الكثير منا مريض ومشوه كما قلت . وقد يبدو هذا الذوق في المدن المصرية أكثر منه في الريف وما يشبهه ، بدليل ان الأغاني الريفيّة معظمها جيد الكلام والمعنى جيد اللحن والتلحين ، حتى أن بعضه يأخذ بالألباب ويستهوئ الأفتدة ويحرك المواطنين ويوقظ الشعور ، وهي في جملتها أذواق ينقصها الإحساس الفني السليم ، ومن المستطاع العمل على ترقيتها ولو الى حد مقبول .

ومن وسائل الترقية :

(أولاً) : تهذيب الأغاني واختيارها على الوجه الذي ذكرته في هذا المقال ، وأنا لا أنكر أن هذه الأدواق التي عاشت زمنا طويلا تتغذى من هذه الأغاني المريضة تنوّف تناذى وتقاسى اذا طلعتنا عليها بالأغاني العالينة في ألفاظها ومعانيها وتلحينها ، ولكن الذي أقره أن الأذواق تراض وتعالج كما يراض الخلق وكل حاسة من حواس الجسم ، تراض وتعالج المرة بعد المرة حتى تالف وتتعود ثم تأخذ في مراحل التهذيب والنمو .

فلتكن كما كانت "الطفاطيق والمنولوجات والأناشيد والمراويل وما يشبهها" للطبقات التي تستعذبها ، ولتمثيل في الرويات الشعبية ولكن بعد أن تهذب الفاظها بحيث لا يصعب على غير المتعلمين فهمها ، وبعد أن يحو منها من المعاني ما يوحى بالذلة والخضوع واللبونة .

(ثانياً) : احياء الشعر الغنائي العربي ، وهذا أصح غناء وأعذب للذوق المهذب وللإذاعات العامة ولا أقصد بالشعر العربي شعرنا الحديث وحده ولكن أقصد الشعر العربي عامة على اختلاف عصوره ، فلوصح أن سكرن هناك رقابة على الأغاني فليكن جانب من تلك الرقابة خاصا باختيار ما يصلح من الشعر العربي للغناء .

(ثالثاً) الإكثار من إذاعة الأناشيد في الحفلات العامة والخاصة ، ولغة الأناشيد غالبا أسلم وأصفى من لغة الأغنيات الأخرى ، وإذاعتها بكثرة على الشعب يضمن لنا تذوق اللغة الصحيحة أو القريبة من الصحيحة ، كما يضمن لنا كثيرا من المعاني المهذبة أو القوية ، واللغة والمعنى هما ما نوجه إليهما اهتماما خاصا ليتعود الشعب سماعهما المرة بعد المرة ، فيرق الإحساس قليلا . ويتذبه الذوق السليم تبعا لرق الإحساس .

وبعد ، فهذا عرض سريع لأغنائنا . وإجمال وجيز لما نرجوه من إصلاح الأغاني والعناية بتلحينها والعمل على رفع المستوى الثقافي للآخين ، ومحاولة تهذيب الذوق الفني للشعب ، والقصد إلى احياء الشعر الغنائي العربي ، والحرص على المواهب الفنية في بعض الشباب الموسيقي بما نعهده له من نظم ودوايات .

فايد العمروسي